نملة الجبل

وإن أنتم أعرتموني أسماعكم يا سادة، وتوسَّمتم في ذي البيان إفادة، فاعلموا يا رعاكم: أنَّ خالقكم دحاكم، من جبلَّةِ طين، والطينُ مهين، ونَفْخِ الروح، والروحُ سفوح، تستنهضُ الهمم، وتأبى اللَّمم. والميزانُ العدل، بين الجدِّ والهزل: عقلٌ وعى، وصدرٌ حوى، فيحصل الوفاق، بين قلبٍ تاق، وعقلٍ واق.

واعلموا يا أحبَّة – لتجتنبوا المغبَّة– أنَّ طبائع البشر واحدة، تكسوها جسومٌ كاسدة، ومنها ما نستحضر، في ذي القصص ونستعبر.

فهلمُّوا معي، كما الألمعي، نسمع ونعي، علَّنا في ذاتنا نتحسس، ومن ربقِ ذنبٍ نتوجس.

وكلُّنا خطَّاء، وخيرُنا المشَّاء، في غورِ ذاته، وأصلِ صفاته، يصلحُ ويعمِّر، ومتى تمَّ له الأمر، التفت لمهمته وما أُردِف، التي لأجلها استُخلف، في إعمارٍ وإصلاح، والكون له صدَّاح.

قال كليلة: ويحٌ لهذه النفس التي تستحضر ذاتها في كلِّ محفل، تتبرقع بالأردية وتتسربل، تجرجرها وراءها، وتشمخ بخيرٍ أصابها على القوم، لا ترى منهم غير خيالاتٍ في حقول غناها، يذبُّون عنها ويقْعون، فإنَّها على حالتها... تلك كما نملةُ الوادي!

قال دمنة: وكيف ذلك؟!

قال كليلة: يُحكى يا دمنة أنَّ نملةً حدَّثتها نفسها، بصعود جبلٍ أشم، يقع على طرف وادي النمل. وزيَّنت لها هاته النفس رحلتها تلك: بأنَّ الجبل ما خُلق إلا لتعتليه هي، وتطَّلع من قمته على سفاسف النمل ترعى تحت قدميها، تشرئب بأعناقها وتحاول مدَّ البصر – ما استطاعت– لتطول منها خيالاً بعيداً، تستمدُّ بمرآه قوةً تدفعها لمزيد حرثٍ، فتقديم هبات على أعتاب الجبل.

قال دمنة: ولكنّ الطموح يا كليلة لا يعيب، ومتى ارتأى أحدهم في ذاته الإعتلاء ارتقاءً فليفعل، لا ينازعه إلا منافس، ولا يقدح فيه إلا مثبِّط.

قال كليلة: أحسنت القول يا دمنة، فالمرء إن لم تحثُّه نفخة الروح فيه، على مقارعةٍ وطلب العلا، لما استأهل إلا أن يكون ممن يدبُّون عليها: فيرعون ويهيمون، حتى يوافيهم الأجل، فهم كالأنعام، بل أضل!

ولكن طلب الرفعة يا دمنة، إن لم يستصحب معه صفاء النية، وجلاء السريرة، وينأى بالطالب عن مستنقع الذات الآسن، فلا خير فيها رفعة؛ ضرُّها أكبر من نفعها.

ونملتنا هذه، تعاظم شأنها في عين نفسِها، فاستجلبت عُدَّها، واستحضرت عتادها، وإلى جبلها شدَّت الهمَّة، ترنو إليه وتسمعه بأُذن العين يناديها: أطلتِ عليَّ يا نملة فهلمَّ : يكاد حصاي يتفتت شوقاً لدبيبك، وكذاك سحائب قمتي.

ونملتنا تجدُّ السير، وقرون استشعارها تهتزُّ طربًا، وقد أيقنت أنَّ الجبل جبلها، وما هي إلا دبَّاتٌ قليلات فتعتليه، وهو منها ذاتها التي جُبلت فيها؛ جبلًا يتصاغر أمامه المخاليق.

وفي أثناء رحلتها إلى ما حسبته مقدَّرًا لها ترى سباعًا تزأر: تتهادى بخطاها الواثقات، تهزُّ لبداتها باقتدار، فتعجب نملتنا بتلك المخايل، وتسأل: إلى أين يا سبع!!

فيتفكَّه السبع مجيباً: إلى الجبل يا نملة.

فتزقزق السعادة في خطى النملة: السبع على أعتاب جبلي يستبقني، ليستقبلني.. يا فرحتي!!

وهكذا طوال رحلة نملتنا، والطريق الطويل تحفل بسالكيها: من فيلةٍ عظيمة، وغزلان رشيقة، وأحصنةٍ سابقات، وذئابٍ وثعالب وأفراس نهر،وكلُّ ما هبَّ على أرضٍ ودب، كلٌّ يسعى فيها، ولا يكاد يراها.

حتى عَنان السماء ما خلت من صقورٍ وعقبانٍ وعنادل، وكلِّ طيرٍ بجناحيه يطير، أممٌ أمم، كلُّهم وجهتهم... الجبل!

تتخبَّطُ لسعادتها أقدامُ النملة، وهي ترى رعاياها، وأهل حفيفها وزفيفها يسبقون، يعدُّون لاستقبالهم، وفي ذلك يجهدون.

حتى تراءت لها سحالٍ وأفاعٍ ساعية، تمرُّ بساحتها فتسألها باسمة: إلى أين يا أحباب؟، وهي واثقةٌ من جواب، تبغي الأُنس برفاق السعي بطناً لظهر.

يجيبونها بفحيحٍ واحد: الجبل يا نملة.

فتقول مزهوَّة: أي عزيزاتي، إنَّما هو جبلي أنا، وإنَّه ليأتينني في يومي وليلتي يناديني ويرجوني أن أعتليه، أما ترون أنَّني أحقُّ الدابِّين فيه!!

انظرن إلى دقَّةِ أطرافي وفتوني، وقروني وعيوني؛ هباتُ ربي لي لأعتليه، فلا أُرهقه، ويعظم هو بي.

فتجيبها السَّاعيات– وقد اتسعت منهنَّ أحداقُ الإنبهارِ: القول ما قلت يا نملة، وإنَّه لجبلك، وأنت أحقُّ العالمين فيه، فمرينا تجدينا من الطائعات.

أومأت برأسها الصغير النملة، وعينُ الرِّضا منها ممتلئة: اصطففن ورائي، ولتنفخن على مواضع القدم منِّي، علِّي إلى جبلي أُسرع، فهو كما تعلمن ينتظرني منذ أن أُرسيَ به جبلا.

وكذاك فعلن، فجعلن ينفخن على مواطئها وينفخن، وهي واقفةٌ منتشية، بذي البطانة المخلصة، التي ساقها إليها استحقاقها، ولهفةُ الجبل عليها.

وهنَّ على حالتهنّ تلك، إذ بضفدعٍ يتقافز، الوحل عنه يتناثر، ونقيقه يصمُّ الآذان، فيلتفت موكب النملة منزعجا: إش إش يا ضفدع، أخفض صوت نقيقك، ولتغرب عنَّا، فنملتنا تستعد للقاء جبلها، ولابد أن تكون رائقة المزاج لهذا اللقاء وصافيته.

يقطِّب الضفدع ويقترب: نملةُ الجبل!! لم أفهم!

فتتضاحك الأفاعي، وتتلمَّزُ السحالي: أخبرنا أولًا: أين مسيرُك أنت؟

ينكفئُ الضفدع لتنابزهنَّ ويجيب: الجبل، أقصد الجبل، كما قصده قبلي خلقٌ كثير، وسيقصده بعدي الخلق، وقد نال منه كلُّهم على قدر سعيِّه، وما كتب الله من قبل له.

تسمع النملة ما قيل، فتلوي العنق الدقيق، وتصعِّر خدها: أنت أيها الضفدع الموحل تنتوي اعتلاء الجبل!! والله إنَّها لهزُلت!

أمَّا الأقوام الذين سبقوا، واللاحقون، كلُّهم يعلمون يقينًا: أنَّما الجبلُ جبلُ النملة، وإنَّها لآتيته، ولهذا المجيئ يستعدون، وعلى أعتاب جبلي هم راقدون، يصعدونني على ظهورهم وهم يتنادون: لنملتنا أحقُّ الخلق، لنملتنا أحقُّ الخلق.

فينبري الضفدع قائلًا – والوحل لازال على جثته–: أي نملة، والله ربي خلق فعدل، فوهب وأعطى، وأجزل هاهنا، وهاهنا حرم.

والمنحُ والمنعُ عدل، ولكلِّ نفسٍ وما يقوِّمها، يعلم ربي مواطن الإصلاح منها، ومواطن الإفساد، مشيئته فينا ماضية، واللبيبُ من رضيَ فرضَّاه، وجنَّد لرضاه الخلق.

كلٌّ يسعى فيها – وكلُّنا عبد– يتلمَّس مواطن الإحسان فيه ظاهرًا لباطن، وهو الملهم لذي الإحسان والمُسدِّد.

والخيرُ يا نملة يعمّ، والشر يطمّ، فلا تزكِّي، واعلمي أنَّ الخيرَ ممدودةٌ أسبابه، ولكلٍّ منَّا فيه نصيب؛ نغترف فلا ينتقص منه شيئا، يأتي مواردَه الشريفُ والوضيع، الغنيُّ والفقير، البائسُ والسعيد، فلا تقصري الأسباب على نفسك تسلمي، واستلهمي السِيَر، فمن كان عليها ثاويًا أو قائمًا لباطنها صار مآله.

وتزكيةُ النفس يا نملة تُذهب حظوظ الخير، وتجلب السخط، والله ربي أعلم بمن اتقى.

أفلا تنظرين إلى خطاكِ لم تتزحزح قيد أُنملةٍ عن موطئها وكأنَّها صخرٌ تصلَّد!!

ويزيد رَهَقك فحيحٌ يحثو التراب عليك – من أصفيائك– حتى كدت تحت أطنانه ترزحين، فلا تكادين تبينين!!

وهذا يا دمنة ما كان من حكاية نملة الجبل، افرأيتَها والأنا فيها، تُفرِدها للخير، وتأباه – حصرًا لها– على الغير!!

وجزاؤها – كما رأيت– الجزاء، أن تيبَّست همَّتُها عند موطئ القدم، وجعجعة الفم، فلم تُراوح مكانها، وقد عظَّمت من شأن ذاتها فاثَّاقلت بها، كمثل الأغلال تشدُّ إلى طين، والطينُ فيها يؤزُّها مخادعا، وهي في غيِّها سادرة، وزادها رهقًا صحبة السوء، التي زيَّنت لها، وصفَّقت وطبَّلت، فإذ بها تحثو التراب على طينيَّتِها، فيغدو الجزاء إركاسا.. من جنس العمل.

دمنة: ويالله العجب!!.